الفصل السادس عشر

الوطن

من لنا باسمى فصاحة، وابلغ تعبير لنصف الوطن بما يستحقه من الأوصاف، وننعته بما يبين سمو مقامه من النعوت.

الوطن، وأي اسم أشرف من هذا الاسم، وأيه كلمة أسمى مقاما من هذه الكلمة؟

الوطن وما أدراك ما الوطن. إنه الأب، والأم، والأخ، والابن، والملك، والمال، وكل ما يحبه الإنسان، ويميل إليه، ويكلف به، ويعز عليه. الوطن شرف الرجل، وعنوان فخره، ومرجع عزه، وموضع مجده وموضع افتخاره.

الوطن تثور عواطف النفوس لذكره، وتخفق القلوب لسماع اسمه، وتراق الدماء في الدفاع عنه، وتبذل المهج والأرواح في خدمته، ويسترخص كل غال في محبته.

والوطنية أعظم العواطف شرفًا، وأسمى الشعائر مقاما، وهي أقدس وجدان يختلج في صدور الرجال، وأفضل إحساس يدفع إلى عظائم الأعمال. بل الوطنية علاقة سامية، تعلم المرء أن نفسه ليست له بل هي لهذه البقعة من الأرض التي هو مولود فيها، والتي ينتمي إليها ويعيش في ظل رايتها، والتي عرف فيها أباه، وأحب فيها أمه، ونادى أخاه وصديقه، وقرع فيها باب مدرسته، وتعلم لغته، وخضع لأستاذه، وخدم ملكه وأميره، واستنصف فيها القاضي من ظلم لحقه.

بل الوطنية عاطفة شريفة تعلم المرء أن حب الوطن من الإيمان، فمن لا وطن له لا دين له. وتعلمه أيضا أن حب الوطن قبل حب الأب والابن، وكم من أب قدم ابنه فدي لوطنه وكان مشكورا، وكم من ابن خالف أباه من أجل وطنه ولم يسمه التاريخ عقوقا.

أو لم نسمع بأولئك الأمهات والزوجات اللواتي يفضلن أن يرين أولادهن وأزواجهن أمواتا من أن يشهدنهم متخلفين عن الدفاع عن الوطن في يوم الغارة. فما الذي يحمل الأم –ومحبة الأم لولدها لا يحيق بها وصف– علي إلقاء ولدها الحبيب في وسط المعارك والمعامع، حيث تستخرج القلوب وتنتهب الأرواح.

إنما يحملها علي ذلك ويدفعها إليه حب الوطن المقدس الذي لا يعادله حب، ولا يجب أن يعادله حب. فالأم تحب ابنها ولكنها تحب وطنها أكثر منه، والابن يجل أباه ولكن يجب أن يجل وطنه أكثر منه.

ونحن نوصي بالطاعة للوالدين، ومع ذلك فنحن بكل جرأة وحرية ضمير نقول لكل ابن إذا أمرك أبوك بما يعود علي الوطن بالضر فاعصه ولا تطع له أمرا، فالوطن قبل أبيك، بل قبل نفسك أيها الإنسان.

وقد كان أحد الأقدمين يوصي أولاده في كل صباح بمحبه الوطن، والتفاني في خدمته، والموت فداء عنه. وكان يقول لأكبر أولاده: ليكونن أخلاصك الحب لوطنك عبرة لسائر أخواتك، ولجيرانك، ولكل من يسمع بذكرك. ويا بني إذا وجدتني في خطر وكان الوطن في خطر فبادر إلى نجدة الوطن قبل نجدتي، وأنقذ الوطن من الخطر المحيق به قبل أن تنقذني؛ لأنك إذا أنقذتني فقد بررت بأبيك وحده، ولكنك إذا بادرت إلى إنقاذ الوطن فقد بررت بأبيك، وأمك، وأخيك، وأختك، وسائر انسبائك وأقاربك، وأصدقائك، وصحبك، وأبناء أمتك ولغتك أجمعين.

ويحكي أن أحد العقلاء شعر بدنو أجله، فجمع إليه أولاده، فلما اجتمعوا حول سريره قال: إنني ذاهب عنكم إلى ملاقاة ربي. فبكي أحد أولاده.

فقال: لا يبكينك يا بني دنو ساعتي، فإنني والحمد لله قد وفيت الغرض، وقمت بالواجب، وأريد بهما خدمة الوطن. ثم قال بكر أنجاله أوصني يا أبي، فقال: أوصيك يا بني بحب وطنك فهو الأب لك من بعدي، وهو أمك التي تحبك وتحنو عليك فاذكره أينما حللت، وأخلص له الولاء أينما كنت، وأعلم أن من لا وطن له لا دين له، ولا ذمة، ولا شرف، ولا ذكر.

وقد قال أفلاطون: إذا كان الإضرار بالأب، أو الأم ذنبا عظيما، فالأضرار بالوطن ذنب أعظم. وقال شيشرون: إن آباءنا، وأمهاتنا، وإخواننا، وأقاربنا، وأصدقاءنا أعزاء علينا، ولكن هذا الحب لهم يمتزج ويجتمع كله في حب الوطن. وقال هوارس: أن أجمل موت وأعذبه الموت عن الوطن. وقال لامارتين: الشعوب تحب أوطانها كما يحب الرجل الحياة. وقال أحد كتاب العرب: ما عز علي شيء إلا كان الوطن أعز منه، وكان هو فداء عن الوطن.

وكنا مرة في مجلس أحد الحكام في لبنان، فجري الحديث في أحب الأمور إلى الإنسان، فقال الحاكم: أحبها إلى ثلاثة: الأول الوطن، والثاني الوطن، والثالث الوطن.

وكفى الوطن تعريفًا قول المثل العربي المأثور: "حب الوطن من الإيمان"، وقول الآخر: "من لا وطن له لا دين له".

ولقد أكثرنا من الاستشهاد وإيراد الأقوال في هذا المعني لا عن غير قصد، بل لغاية عظيمة: وهي أننا كنا نظن أن أقل ما كتب أجدادنا العرب فيه أنما هو التربية فقط فأكثرنا من لومهم علي إغفالهم ذلك الموضوع الخطير. فلما بلغ بنا

الموضوع إلى فصل الوطن وجدنا لسوء الحظ أن إهمالكم للكتابة في هذا المعني الشريف قد فاق إهمالهم للموضوع الأول، فإنك إذا تصفحت قصائدهم الحماسية، وخطبهم التحريضية قبل الدخول إلى ساحة الحرب لرد هاجم علي الوطن، ومغير علي البلاد لم تكد تجد فيها للوطن اسما، ولا للبلاد ذكرا. وفي ذلك ما فيه من مواطن النقص والتقصير في التربية الوطنية، وترك الأثر الحميد من السلف للخلف. حتى أننا اضطررنا بعد أن نقلنا أقوال بعض فلاسفة الأقدمين وكتاب الإفرنج المعاصرين أن نوجد العبارات والامثال عن لسان كتاب العرب كي لا يخلو هذا الكتاب العربي من كلمة لهم في الوطن، وحبه، والإخلاص في خدمته. وهي حالة كان في ودنا لو لم نكن مضطرين إلى الإشارة إليها، ولكن إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون، ورحم الله القائل:

إذا لم يكن غير الأسنة مركب فلا يسع المضطر إلا ركوبها

هذا ولنعد إلى ما كنا فيه من ذكر الوطن، وشرف الوطنية فنقول: أن من جملة ما يشرف به المرء في خدمة وطنه ووفاؤه ماله عليه من حقوق الخدمة العسكرية المقدسة المفروضة علي كل رجل، والتي يتوق إليها كل ذي نفس أبية.

ولعمر أبيك هل رأيت عسكرا يمر والرايات تخفق من حوله، والموسيقي تعزف في طليعته ولم يخفق فؤادك في صدرك، وتترقرق الدمعة بين جفنيك، وينعطف قلبك إلى كل فرد من أولئك الجنود الذين لا تعرف منهم أحدا ولم يكن لك فيهم صديق.

أننا لا نظن أحدا –اللهم إلا الذين تجردوا عن كل عاطفة بشرية وفقدوا الوطنية– يري الجيش يمر، والعلم يخفق، والموسيقي العسكرية تعزف دون أن يختلج قلبه بين جنبيه، وترق عواطفه حتى تترقرق الدمعة في عينه.

ولماذا تحنو أيها الرجل ولا حنو المرضعات علي الفطيم علي هذا الرجل الذي لا يفرق بسوى لباسه عن أي رجل سواه مارا إلى جانبه، ولماذا تصفه بأجمل الصفات وتنعته بأحب النعوت إلى الإنسان وأنت لا تعرفه، ولا تعرف اسمه، ولا تعرف من أبوه وأمه؟

ذلك لأن هذا الرجل الغريب عنك، المجهول منك إنما هو المدافع عن وطنك، الحامي لعائلتك، الحرس لشرفك، وهو سياج ورافع منار مجدك، المخاطر بنفسه في سبيل دفع الخطر عنك، المرهق دمه لصيانة حياتك، المتأهب في الليل إذ تنام ملء جفنيك، وفي النهار إذ تكون مشتغلا بما يعود نفعه عليك للسير إلى حيث يقيك كل شر طارئ، ويدفع عنك غارة كل عدو طارق، إلى حيث يبيع نفسه رخيصة في الذب عن حياضك، ويريق دمه بلا ثمن ليرفع شرف رايتك، إلى حيث يدعوه صوت الوطن، وينابيه لسان الوطنية. فما اشرف هذه الخدمة، وما اسمي مقام الجندي وارفع شأن الجندية!

فالسلام عليكم أيها الجنود البواسل يا حماة الوطن، وسياج الدولة، وعنوان شرف الشعب، وفخر الأمة. السلام عليكم من قائدكم الكبير إلى "النفر" الصغير فيكم، والسلام عليكم في ساحة الحرب كنتم أم في ساعة السلم، ويوم تشهرون السيوف وساعة تغمدونها.

وانظر رعاك الله إلى البلاد التي تعرف قيمة الوطنية وشرف الجندية، وارقب خروج الجيش فيها إلى استعراض، أو إلى قتال. تجد الشيوخ يدعون بالنصر، والأولاد يصفقون ويتغنون بالأناشيد الحماسية، والنساء يهللن ويصفقن، والبنات ينثرن الازهار ويقدمن الهدايا. ثم عد بنظرك إلى هذا الشرق وارقب يوم القرعة، فلا تري غير دموع النساء، ولا تسمع غير الولولة من كل فج كأن من وقعت عليه القرعة للخدمة في الجيش قد انتخب للموت، وقام

السياف علي رأسه.

بل تأمل في الشبان أنفسهم فلا تجد فيهم إلا كثيرين قد اقتلعوا أعينهم بأصابعهم، واقتطعوا أناملهم من أيديهم للخلاص من الخدمة العسكرية والعياذ بالله.

فلماذا يوجد هذا الفرق كله بينا وبين الإفرنج. أليسوا مخلوقين مثلنا من لحم ودم، أم ليست في أجسامنا نفوس مثل نفوسهم؟. بلى، ولكنهم عرفوا الوطن وأحبوه. أما نحن فإننا ننكره ونجفوه. هم يجلون الوطن إلى حد العبادة، ونحن نحقره إلى حد الجحود. هم يستميتون في خدمته، ونحن نميته في خدمة أغراضنا. هم يريقون دمهم إلى آخر نقطة في سبيله، ونحن نمتص كل نقطة من دم الوطن. هم يبيعون أنفسهم ويهبون أرواحهم من أجل الوطن، ونحن نبيع الوطن من أجل لقب نكتسبه، أو منصب نتوسده.

هم ينفقون أموالهم وثروتهم للوطن، ونحن نجرد الوطن من ردائه، وننهب ما تصل إليه أيدينا من أمواله.

ذلك هو الفرق فيما بيننا وبينهم، وأنه لفرق إذا تأملت عظيم، وبُعد إذا نظرت شاسع سحيق. وخليق بهم وهم يحبون أوطانهم كما يحبون أن يعظم جاههم ويضخم سلطانهم. وجدير بنا ونحن علي ما نحن عليه من إنكار الوطن أن نصير إلى أبعد مما نحن فيه من الانحطاط والخمول.

ولعمري هل سمعنا بمن قام في الشرق فترك ملذات المعيشة في المدن الكبرى، والعواصم الزاهية بالعمران الزاهرة بالحضارة، وسار يقطع المفاوز ويجوب القفار مخاطرا بحياته في كل ساعة، يطوي الأيام بلا طعام، ويقطع الليالي بلا نوم ويسير من قفر إلى قفر، ويخلص من قوم متوحشين ليقع بين أقوام من

الهمجيين، ويفلت من وحش ضار ليلاقي وحشا مفترسا، كل ذلك في خدمة الوطن دون التماس مكافأة أو رغبة في جزاء، بل وفاء لحق الوطن عليه وقياما بالفرض المقدس نحو البلاد التي إليها ينتمى وفي ظل رايتها يعيش.

ولقد مر بنا في هذا الفصل ذكر الراية مرددا. فما هي الراية حتى نشرف اسمها إلى هذا الحد ونعلي ذكرها بهذا المقدار؟

الراية أيها الشرقيون رمز الوطن المحبوب، فهي علي ما هي عليه من كونها قطعة من النسيج أغلي ما ينافس فيه، وأشرف ما يفاخر به، وأعز ما يدافع عنه.

متى نصب ملك تنصب له الراية، وإذا سار جيش يرفع في طليعته العلم، وإذا قدم أمير تزين الطرق التي يمر فيها بالإعلام، وكلما احتفل بعيد كبير أو بتذكار عظيم ترفع الرايات، وإذا مات قائد كفن براية بلاده، ومتى حمل نعش جندي غطي صندوقه برايته، وإذا أهينت دولة طلبت الترضية والتعظيم لرايتها تكفيرا عن الإهانة التي لحقت بها.

يشب القتال بين جيشين فيتفاني الجنود في الدفاع عن راية فرقتهم، ويفاخر المنتصرون منهم بغنمهم راية العدو. والموت أحب ألف مرة إلى جيش من أن تؤخذ منه الراية، أو ينال العدو منه علما. فالراية إذا علي كونها قطعة من النسيج لا حد لقيمتها، ولا تقدير لثمنها، فهي أكبر الأشياء ثمنا، وارفعها مقاما، وأغلاها قيمة.

وأيه راية أسمى مجدا من رايتنا نحن الشرقيين، وأي علم أعظم فخرا من علمنا؟. أفلم تسر ألوان رايتنا من الشرق إلى الغرب؟. ألم ينصب علمنا حتى علي أبواب "فينا" نفسها؟. فلماذا ترانا لا نعرف لهذا العلم قيمة، ولا نؤدي

لهذه الراية ما تستحقه من التعظيم والإجلال.

انظر إلى الشرق وفتش منازل الشرقيين ولاسيما القرويين منهم، وقل لنا بعد ذلك: هل تجد في أحدها راية يرفعها الرجل فوق منزله يوم تذكار مولد سلطانه، أو جلوس أميره؟

بل مالنا وللقرويين الذين لا يعرفون كيف تكون الراية، ولا ما هو الوطن، ولا يعلمون متى يحتفل بتذكار مولد السلطان، أو جلوس الأمير؟ فلندعهم وراء بقرهم، وجواميسهم. وبين جمالهم، ونعاجهم. وفي وسط حقولهم، وبساتينهم. وهيا بنا إلى المدن الكبيرة والحواضر الزاهية بالعمران، وسل أبناء الشعب ورجال العامة: هل في منازلهم راية، وفي بيوتهم علم ينصبونه يوم تنصب الأعلام، وترفع الرايات في بلاد الوطنية؟

بل نحن نجد الكثيرين منا لا يعرفون ألوان رايتهم، ولا يذكرون لها رسما، فكيف ننتظر ممن لا يعرف رايته أن يعرف وطنه، ويحبه، ويخدمه، ويفتديه بدمه؟

ونحن لا نقني في منزلنا راية، ولا نعظم لوطننا علما؛ لأننا لا ندرك شأن الراية ولا نعرف قيمة العلم. ولسنا نجهل شأن الراية ونتعامي عن قيمة العلم إلا لأننا لا ندرك قدر الوطن ولا نعرف مقامه.

نعم نقول ذلك ولسنا نخشى في الحق لومة لائم. فأين الشرقيون الذين يعرفون الوطن ويأتمرون بالوطنية الحقه؟ أين الشرقيون الذين يفضلون مصلحة الوطن علي مصالحهم الذاتية وأغراضهم الشخصية؟ أين الشرقيون الذين يفتدون الوطن بمالهم. ولسنا نقول بدمهم؟ أين الحاكم الشرقي الذي يقول لرعيته إذا رأيتم فيّ اعوجاجا فقدموه بحد السيف؟ وأين الشرقي الذي يقول لحاكمه إذا احتجت في خدمة الوطن إلى ذراع فهذا ذراعي، وإذا احتاج الوطن

إلى نقطة دم تراق في خدمته فهذا دمي بكليته؟

فهل حلف الدهر ألا يقيم لشرقي قائمة، وألا ينشئ لعربي تعمده. كلا بل حلفنا نحن الشرقيين أن نساعد الدهر علينا، ونأخذ بناصر العدو علي أوطاننا، فإذا ولى أحدنا منصبا فلخدمة نفسه وأغراضه، ولو أضر فعله بالوطن وخالف عواطف الوطنية. ولقد أمعنا النظر فيما أصاب الشرق من النوازل، وتوالى عليه من الرزايا والكوارث في هذه السنين الأخيرة خاصة، فوجدناها مسببة عن انحطاط العواطف الوطنية عند الشرقيين، وبلوغهم في ذلك إلى الحد الذي يصح أن يقال معه عنهم أنهم أنكروا الوطن وجحدوه.

وأي إنكار للوطن أعظم من مساعدة الغريب عليه، وأي جحود للوطنية أكبر من الميل عنها والعمل بما ينافي أوامرها ونواهيها. أو لم نر في الشرق رجالا أؤتمنوا علي الوطن فخانوه وقلدوا الحسام، ولكنهم في وجه الوطن استلوه. أو لم نر في الشرق رجالا اتخذهم دروعا فكانوا، ولكن للأعادي، ورفعهم إلى المناصب السامية والرتب العالية، فجاروا، واستبدوا، وظلموا، ونهبوا، ومدوا أيديهم إلى كل ما تحرمه الوطنية، وساروا في كل طريق تنهي عن السير فيها وهم يدعون أنهم خدمة الأوطان، إلا أنهم الأعداء في زى الأصدقاء، والذئاب المفترسة في ثياب النعاج.

وقد يحسب بعضهم أن إنكار الوطن لا يكون إلا بخيانة الوطن خيانة عظيمة معروفة، وهم واهمون فيما يحسبون. فإن كل إضرار بالوطن مهما كان قليلا يعد إنكارا له، وجحودا، ويحسب جريمة لا تغتفر. وكل رجل في الأمة من ملكها، وأميرها إلى أصغر فرد من عامتها وسوقتها مطالب بفروض وواجبات نحو الوطن. وأي تقصير يقع في تلك الفروض يحسب خيانة للوطن. حتى أن الرجل الذي لا يعمل عملا ينفع به الوطن يعد مقصرا في ما تفرضه عليه

الطبيعة، ويوجبه عليه الناموس نحو وطنه وبلاده.

ولسنا نريد بهذا القول أن كل رجل من رجال الأمة مطالب بعظائم الأمور، والإتيان بما لم يأته أحد قبله ليكون وطنيا قائما بما يجب عليه نحو وطنه. كلا بل نحن نقصد القيام بفرضه الوطني.

فالملك بحسن سياسته ورأفته بالرعية، والقاضي بعدله وانصافه، والجندي ببسالته وإقدامه، والصحافي بصدقه ونزاهته، والعالم بعمله وتدقيقه، والصانع بإتقانه واجتهاده، والزارع بعنايته وكده، والغني الموسر ببذله وسخائه، ورجل الدين بتنوير الأذهان والتأليف بين قلوب أهل الوطن علي اختلاف مذاهبهم. فمتى رأيت بلادا يعمل فيها مثل أولئك الذين تقدم لنا ذكرهم بما هم مطالبون به طبعا وشرعا فقل أنها البلاد التي يكرم فيها الوطن، وتعرف فيها قيمة الوطنية.

ولكن متى كان الملك يظلم، والقاضي يأخذ الرشوة، والجندي يأنف من حمل الحسام ويهرب من ساحة القتال، والصحافي يتلاعب بالحقائق ويلقي الشقاق بين العناصر، والعالم يرسل الأمور العلمية علي علاتها، والصانع يقصر في عمله، والزارع يهمل شأن أرضه، ورجال الدين يطمسون علي العقول بالخرافات ويدسون سم التعصب الديني في النفوس، فيفرقون القلوب المتآخية، ويشتتون كلمة الوطنيين، والغني يضن بدرهم في سبيل علمي أو عمل خيري. ولسان ينشد:

إني أضـــن بـــدرهم متصـــدقا وأجـود في قـدح بمـا ملكـت يـدي

فأعلم أنها البلاد التي لا وطن فيها، ولا وطنية في صدور رجالها. فعلي مثل هذه البلاد السلام؛ إذ لا رجاء لها في حاضر، ولا أمل في مستقبل والعياذ بالله.

بقي من وسائل إنكار الوطن الوطنية الكاذبة التي يتصف بها كل مدعي الوطنية في بلاد مصر والعثمانية، بل في سائر البلاد الشرقية والأنحاء العربية، وهي من أعظم الضربات التي ابتلي بها الشرق، وأكبر المصائب التي نزلت به. فإنك كيف ألفت، وأين وجهت قدميك لا تجد إلا كل من كانت دعواه في الوطنية وإخلاص النصح للوطن أطول من إنكاره للوطن، واعرض من جحوده إياه، وهو إذا استطاع باع الوطن وأهله، لا بدينار، بل بدرهم.

وعندنا أن أمثال هؤلاء أضر بالوطن من أعدائه الأجانب؛ لأن العدو الداخلي المتزي زى الصديق أشد فعلا، وأكثر ضرا من العدو الخارجي الذي تعرف أنه عدوك. فلذلك كانت دعوى الوطنية لا تثبت إلا إذا قامت عليها الشواهد من الأفعال، ورحم الله الشيخ اليازجي إذ قال:

أن قلت ويحك فأفعل أيها الرجل لا يصدق القول حتى يشهد العمل

ونحن مردفون هذا الفصل بكلام وجيز في خيانة الوطن، نرسل فيه القول هزلا مبطنا يجد بيانا لقبح خيانة الأوطان، وشجبا لعمل الخونة الأشرار، والله يهدي من يشاء.